obeikandl.com

الرجل يتقطع أسفا، ويعلن التمرد على حياته

تمنٍّ يلــذُّ المسْــــتهامُ بذِكْــرِهِ وإنْ كان لا يُغْني فتيلًا ولا يُجْدي
وغيظٌ على الأيامِ كالنَّارِ في الحشا ولكنهَّ غيظُ الأســيرِ على القِدِّ

هكذا يغلي غضبًا، ويصرخ ندمًا، لكنه لاحيلة له، بل هو مثل الأسير في قيده، لا ينفعه غضبه من هذا القيد، وهو مشحون بالسخط من بني زمانه؛ لأنهم أنانيون وطمّاعون ليس معهم حل إلا السيف، حتى يحكم الله بينه وبينهم وهوخير الحاكمين:

من الحلمِ أن تستعملَ الجهلَ دونه إذا اتسعتْ في الحلمِ طُرْقُ المظالمِ
وأن تردَ الماءَ الذي شَــطْره دمٌ فتُسقى إذا لم يُسْقَ من لم يُزاحِمِ
ومن عرفَ الأيامَ معرفتي بهــا وبالناسِ روّى رمحه غيرَ راحمِ
فليسَ بمرحومٍ إذا ظَفِروا بـه ولا في الردَى الجاري عليهم بآثمِ

هذا رأيه الصريح في بني جنسه وفي زمانه، إن الرجل ملتاع ملدوغ من حساده، منكوب من الأعداء، مضطهد من الملوك، ولكن كان لهذه النوائب نفعًا من إذكاء قلبه، واشتعال ضميره بهذا العطاء الجزل من البيان الجليل، والأدب النبيل، ولو أن المتنبي سلم من هذه النكبات، لكان شعره مثلجًا كشعر المئات من الشعراء الباردين الثقلاء، الذين أغلوا علينا الأوراق والحبر، وخدعوا القارئ بحسن طباعة دواوينهم، ليجد فيها غثاء من رخيص القول، وزبدًا من تافه الحديث.

لكن أبا الطيب أنضجته المعاناة، فصارت تسيل على شفته قوافٍ سائرة، تدعوك إلى العيش في ظلالها، وتأملِ جمالها والتمتع بخمائلها، ونحن نعلم أن سبب هذا الهيجان العاطفي، والثوران النفسي، إنما هو لعدم نيله مطالبه الدنيوية الرخيصة، من منصب وصدارة وإمارة، فهو مغرم بهذه المقاصد، متيم بهذه الهوايات، ويحسبها أجل ما يناله المرء؛ لأن الرجل شاعر، وليس لديه من علم الوحي، وفقه الديانة، ونور الملة، ما يعصمه عن هذا المذهب، ويدله على ما هو أنفع وأرفع، وهو رضوان الله عز وجل ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ . .** ﴾ [**النحل** : ٩٦].